

شبهة حجم نهج البلاغة والإسهاب في كلام الإمام علي (ع) والرد عليها

على حاجي خاني*

الملخص

لا يشك أحد أن نهج البلاغة من أعظم الكتب الدينية بعد القرآن الكريم، وليست الخطب والرسائل والمواظع والحكم المتوافرة فيه إلا نبراساً منهاجاً منيراً يستهدى به البشر ويأخذ منه النور ويهدى به إلى سبيل الرشاد، ذلك لأن ما ورد فيه، المضامين القرآنية وخلاصة سنن النبي وقد أبان الإمام عن فصاحته وبلاغته بأجمل وأروع ما يمكن أن يقوله البشر. وبمرور الزمن قام الحاقدون والمشككون بطرح بعض الشكوك والشبهات في مدى أصالته ودقة محتواه. من هذا المنطلق فإن من أهم الشبهات اللفظية أو الشكلية الواردة على نهج البلاغة، هي شبهة حجم نهج البلاغة والإسهاب في كلام الإمام، كما قال بعض المشككين في نهج البلاغة إن فيه إطناباً وتطويل كالمقاصعة والأشباح وعهد مالك الأشر؛ بيد أن هذا لم يكن مألوفاً من قبل ولم يعهد إليه. ففي هذا المقال يتناول الباحث هذه الشبهة ويسعى إلى الرد عليها وفقاً للمنهج الوصفي التحليلي، مشيراً إلى كثير من الخطب الطويلة التي سبقت عهد الإمام وأنه هو الذي كان يمدد مدى الإطناب أو الإيجاز في الخطب وفقاً للمرسل أو المخاطب أو الأمكنة التي تُلقى فيها؛ كما أن الطول والقصر ليس معياراً مناسباً لتحديد مصداقية الخطب، بل الأثر الذي يتركه على المتلقى هو ما يبنى عليه إلقاء الخطب، وفيما يخص عهد مالك والإطناب فيه، توصل الباحث إلى أن شخصية مالك والمتلقى الخاص ما كان يقتضى الإطناب في العهد، بل المتلقى العام لهذا العهد والظروف الحاكمة على فحوى النص، هو السبب الرئيسي في الإطناب والإسهاب فيه.

الكلمات الدلالية: نهج البلاغة، الشبهة، الحجم، الإسهاب، الإمام علي (ع).

*. أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران

ali.hajikhani@modares.ac.ir

تاريخ القبول: ١٣٩٥/١/٢٩ ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٤/٨/٢٧ ش

١- المقدمة

إن نهج البلاغة سفر متميز لا كسائر الأسفار، لأنه انطباعات إمام كبير من أئمة الإسلام، شهد أحداثه الكبرى، فكان نهجه بحق مذكرات ذاتية، وانطباعات إبداعية لهذا الإمام الكبير الذى أسهم فى هذا الصراع المرير بين الخير والشرّ، ومن خلال هذا التعبير الإنسانى من الجاهلية الجهلاء إلى العقيدة السمحة الغراء، وهكذا سما أتباع الدين الجديد سمواً إنسانياً، فكانت رسالتهم إلى العالم كله والناس أجمعين. (باشا، ١٩٩٣م: ١٢٢-١٢٣) فإن هذا الكتاب ملئ بالمعلومات النافعة والمجدية عن المبدأ والمعاد وما بينهما وهو كتاب شامل لأصول الدين وفروعه، وفيه ما يكفى المهتمى والسائر فى سبيل الرشاد وما يتعظ به المتلقى من نصائح وخطابات تعليمية ومواعظ حسنة تفيد له بالخير والبركات ويساعده فى إسعاد نفسه أو إهلاكه، لما يسير به فى عوالم مختلفة من دار البوار إلى دار القرار وعالم القبر والبرزخ ومجالات متنوعة أخرى وذلك من خلال خطبه ورسائله وكلماته القصار، «فإذا كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب، هو ذلك التجسيد الحى، والنموذج الألفذ للإنسان الكامل فى إنسانيته، الذى أراد الله له أن يكون منار السالكين، ومدرسة الأجيال، وقدوة الأمم، فإن نهج البلاغة هو الكتاب الغنى عن التعريف والتوصيف، بعد أن كان دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق ولقد كان وسيبقى على مرّ العصور نوراً تشرق به دروب العارفين وبصيرة وهدى للمستبصرين.» (المشكينى، ١٩٨٤م: ٥)

قد اختار الشريف الرضى نهج البلاغة من كتب ومصنفات ومصادر شتى تتوزع على الأدب والتاريخ والحديث وكتب الأخلاق والعرفان وهى مصادر مشهورة ومعتمدة عند أهل العلم وأرباب المعرفة والتحقيق وأكثرها قبل أن يولد الشريف الرضى بمئات السنين، وقد حفظها. (الشامى، ٢٠٠٨م: ٢٠) وكتاب النهج جدير بأن يكون من أجلّ المصادر وأعلها وأوثقها، ولا يحتاج بعد إلى مصدر أو مرجع يؤثقه، شأنه فى ذلك شأن سائر ما يرويه المحدثون الثقات، فيؤخذ بمروياتهم من دون تشكيك، ولا مطالبة بمصدر، على أنه جاء جلّه مروياً بالأسانيد فى مصادر آخر سابقة أو معاصرة لجامع النص. (الشريفى، ٢٠٠٥م: ١٥٠) ولنهج البلاغة فى عالم العلم والأدب موقع مرموق

وهو سبب شدة اعتناء الأدباء والمستشرقين بهذا الأثر النفيس الذي جمع فأوعى من ضروب البلاغة وأساليب الفصاحة ومحاسن الكلام المصاغ أحسن صياغة، وكيف لا يكون هذا الكتاب خاصاً لأشتات المحاسن، وقد اختاره السيد الشريف الرضى وهو المعروف بحسن الاختيار والابتكار من كلام أمير المؤمنين أحكم الحكماء وأبلغ البلغاء، أما كون نهج البلاغة مطابقاً لاسمه فقد أصبح غنياً عن الاستدلال، لأنه قد أقرّ المخالف والمؤلف بأنه أبلغ كلام بعد القرآن الكريم والحديث الشريف، أما مناهجه وأساليبه فهي من أعجب ما نسخ عليها كاتب فمن وصف الله وتمجيده إلى وصف أهل البيت عليهم السلام إلى وصف حالة مع مناظريه إلى ذكر الزهد والورع إلى، وقلما نجد شاعراً له نظرة في الحياة أو قول في الحكمة أو شغف في لفظ رصين إلا وجدت شعره يتفياً ظلال نهج البلاغة، لما له من الحكم التي تأخذ بجامع القلب، فهو عظيم المناقب، جمّ الفضائل، ومن أبرز ما يميّز به النهج هو وضوح الأسلوب وحسن المقصد وجزالة الكلمات والمعنى المحدد الذي لا يحتمل معنى آخر. (الطعنة، ١٩٧٧م: ٧٢١) إذن يعتبر النهج من أعظم الكتب الإسلامية شأنًا وأجلها منزلة، حيث اهتم به باحثو الأدب العربي ورجال الدين في مختلف العصور.

٢- خلفية البحث

هناك دراسات كثيرة سبقت هذا المقال، منها الكتب والمقالات والرسائل والأطاريح الجامعية. فمن أهم الكتب التي تناولت نهج البلاغة وناقشه "بلاغة الإمام على" لأحمد محمد الحوفي، حيث تناول الباحث بيثة الإمام الخطيبية والكتابية وروافد البلاغة، ثم توثيق النهج من حيث اليقين بصحته والرفض له والشك في بعضه والدعاوى والمناقشة، ثم بلاغة نهج وخصائصه النحوية من العاطفة والخيال والأفكار والتعبير. و"أصالة نهج البلاغة من منظور الدراسة الموضوعية الأسلوبية" لعلی حاجی خانی حيث تناول المؤلف الأسلوب ومدارس الأسلوبية واتجاهاتها، ثم تطرق إلى الشريف الرضى وأسلوبه في نهج البلاغة ومن سبقوه في ثم قضية الانتحال في نهج البلاغة والردّ عليها دراسة موضوعية أسلوبية والردود على بدايات التشكيك في نهج البلاغة والتشكيك

في نسبة أجزاء من نهج البلاغة إلى الإمام على (ع) عند المتأخرين والردود عليهم ثم الشبهات الشكلية والمعنوية والردود عليها دراسة موضوعية أسلوبية واستنتج أن دوافع الشريف الرضى في جمع نهج البلاغة هي من العوامل المهمة التي تجعل كل باحث يقتنع بعدم إمكانية الانتحال في نهج البلاغة وعن موضوع السجع وتنميق الكلام في النهج، حاول الباحث أن يثبت أن السجع من المحسنات التي كثر ورودها في النصوص التي سبقت ظهور الإسلام ووردت في الأحاديث النبوية وخطب الخلفاء الراشدين قبل الإمام على، كما أن دقة الوصف وغرابة التصوير تعدّ مما يميز كلام الإمام من الناحية الأسلوبية. ومن أهم المقالات: "أساليب ابن أبي الحديد في إثبات أصالة نهج البلاغة" للباحث مجيد معارف، حيث استعرض الباحث شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة وجهوده في التعبير عن ميزات كلام على (ع) على كلام سائر الخطباء بأسلوب التناول الإيجابي لأصل نهج البلاغة والذي يشمل ذكر المحاسن الأدبية والمعنوية والتعرف على المصادر والمجالات وسبب إصدار الخطب والرسائل واستدراك الكلام في شرحه والنفوذ والتأثر من كلمات على (ع)، والمقارنة الفنية بين خطب نهج البلاغة وكلام الخطباء المشهورين. ومقالة "في الدفاع عن نهج البلاغة والردّ على شبهات الدكتور شوقي ضيف"، للباحث تورج زيني وند وهي المنشورة في مجلة العلوم الإنسانية، ع ١٧، ١٤٣١ق، حيث حاول الباحث أن يدخل في صميم آراء ضيف ليرسم تصويراً واضحاً من حقيقة نهج البلاغة وآرائه وأن الطريق الذي سلكه في ضوء المنهج الديكارتي المعروف، يمتاز بالشك والتناقض والحيرة والتشائم وسوء الظنّ والخصومة والعصبية بلا حرج معتمدة. واستنتج الباحث أن شبهات ضيف صدرت منه بدافع العصبية العمياء والجهل المتراكم في تعريف نهج البلاغة ومقالة "دعوات وشبهات أثارها البعض حول نهج البلاغة"، لعبدالرسول الغفاري، وهي المنشورة في مجلة تراثنا، ع ٣-٤، ١٤٢٨ق، حيث تناول الباحث الموضوعات المهمة في النهج وهي النبوة والأنبياء والشرائع السابقة ثم نبوة خاتم الرسول محمد مع بيان ما في القرآن الكريم من الأوامر والإرشادات والنظم التي رسمها الله سبحانه للبشر وعن دواعي كتابته للمقال، هو ردّ تلك الشبهات التي جاءت مكررة على ألسنة عدة من الكتاب، ثم كشف اللثام عن الحقائق التي

انطوت عليها الخطبة الشقشقية والأدوار السياسية التي مرّ بها المسلمون بعد رحيل النبي الأعظم. ومقالة "نهج البلاغة: جمعه، مصادره، مناقشة التشكيك في نسبته إلى إمام على"، لعبدالهادي الشريفي، وهي المطبوعة في فصلية المنهاج، ع ٣٦، ٢٠٠٥م، حيث قام الباحث بطريقة الرضى في الجمع، وهو جمع ما تفرّق من كلام الإمام من مصادره الموثوقة ودوّنه في أوراق متفرقة ليستدرک ما يشدّ عنه مستقبلاً، ثم عمد إلى اختيار محاسن كلامه، وأن جميع ما ضمّه النهج أخذ الرضى من المصادر التي سبقته زماناً، أو التي عاصرتة، ولما كانت مهمة الرضى محصورة بالجمع مع التمهيص والتحقيق والانتفاء لضبط مادة النهج، لإبراز بلاغة الإمام وفصاحته، فإنه لم يراع في ما اختاره التنسيق والتتالي، أمّا قضية كثرة الخطب، فإنها كانت قياساً إلى كثرة الدواعي والأغراض، وتراكم الأحداث والظروف السياسية والعسكرية والاجتماعية والأخلاقية قليلة، لأن جميع هذه الأمور تحتاج إلى كلام كثير هو أضعاف ما ورد في النهج من الخطب.

إن الدراسات السابقة التي حاولت الردّ على الشبهات المطروحة عاجلت الموضوع في الغالب من وجهة معيّنة مغلّفةً بذلك بقية الجوانب. منها الأدلة العقلية والتاريخية والمناهج الأسلوبية والاساليب المقارنة، فحاولت هذه الدراسة أن تكون متعددة الاتجاهات مع التركيز على الأسلوبية أساساً للعمل. فقد ظهر أن المصادر المذكورة لم تختص بآخذ على نهج البلاغة حول حجمه والإسهاب في كلام الإمام على والشبهات اللفظية الواردة حولها ولم تتوسع فيها، وهذا المقال فريد من نوعه وأولى خطوة في هذا المجال.

٣- مآخذ على نهج البلاغة والشبهات الموجهة إليه

مما لا شك فيه أن للشريف الرضى الفضل كلّ الفضل في البدء بجمع كلام الإمام وصونه من الضياع والفقْد، وذلك نظراً لأهميته واتصاله الفعال بالأحداث الكبرى في حياة العرب والمسلمين، ولاسيما هذه الأحداث التي شلت الكلمة وفرّقت الإخوة، وكان لكلام الإمام الأثر الكبير في جمع القلوب وتوحيد المشاعر، وقد تجلّى ذلك كله في هذه الومضات الإنسانية، والإضاءات البيانية، والإبداعات الفكرية، وذلك بالاعتماد

على ما في القرآن من شرائع وأحكام وما فيه من عظات وآيات، فلقد انعكس ذلك كله في أقواله وأعماله. (باشا، ١٩٩٣م: ١٠٨)

أما عند الرجوع إلى الكتب التاريخية فيظهر أن مبدأ التشكيك في نهج البلاغة يعود إلى القرن السابع الهجري، وأول من بذر بذرة التشكيك في نهج البلاغة ومدى صحة نسبه إلى الإمام علي (ع) هو ابن خلكان المتوفى سنة (٦٨١ق) حين يقول في كتابه المعروف بوفيات الأعيان عند ترجمته للشريف المرتضى: «قد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضى؟ وقد قيل: إنه ليس من كلام علي [ع]. وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه والله أعلم.» (ابن خلكان، لاتا، ج ٣: ٣١٣) وقد ورد هذا الكلام عند صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ق في الوافي بالوفيات (الصفدي، لاتا، ج ١: ٧) وعفى الدين الياضي المتوفى سنة ٧٦٨ق في مرآة الجنان (الياضي، لاتا، ج ٣: ٥٥) وابن عماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ق في شذرات الذهب في أخبار من ذهب. (الحنبلي، لاتا، ج ٣: ٢٥٧) واتهم شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ق في ميزان الاعتدال الشريف المرتضى بوضع نهج البلاغة، قائلاً: «وهو (الشريف المرتضى) المتهم بوضع كتاب نهج البلاغة وله مشاركة قوية في العلوم، ومن طالع كتابه نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.» (الذهبي، لاتا، ج ٣: ١٢٤) ويكرر ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ق في لسان الميزان ما قاله الذهبي. (العسقلاني، لاتا، ج ٤: ٢٥٦)

ثم جاء المعاصرون فاقتفوا آثار من سبقهم حيث شككوا في نسبة نهج البلاغة إلى الإمام علي (العفاري، ١٤٢٨ق: ٣٠-٣١) ومنهم الذين تأثروا برأى ابن خلكان وتابعوه هو جرجي زيدان حيث قال إن الإمام علياً (ع) قد جمعت خطبه في كتاب نهج البلاغة، جمعها الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ق. (زيدان، ١٩١٤م: ٣٣٣) كما أن شوقي ضيف يكرر ما قاله ابن خلكان حين يتحدث عن الخطب في صدر الإسلام قائلاً: وقد أثرت عنه (عن الإمام علي) خطب كثيرة، ولا تقصد الخطب التي يحتويها بين دفتيه كتاب (نهج البلاغة) فأكثره مصنوع ومحمول عليه، وقد أشار إلى ذلك كثير من العلماء

(ضيف: ٦١)؛ ويعترف في مكان آخر بعد أن يذكر آراء المتقدمين بأن الكتاب من عمل الشريف الرضى وصنعه، ومع ذلك يرى بأن الشريف الرضى لم يؤلفه جميعاً حين يقول: «فقد أضاف قبله كثيرٌ من أرباب الهوى وفصحاء الشيعة خطباً وأقوالاً إلى على بن أبي طالب [ع]». (المصدر نفسه: ٦٢٠)

كذلك يكتفى أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام" حينما يتحدث عن نهج البلاغة ونسبته إلى الإمام على (ع) بذكر آراء الناقدين القدماء ويكرّر تشكيكهم في مجموع ما حوى هذا الكتاب دون أن يأتي بحجة مقنعة (الأمين، ١٩٦٩م: ١٤٨-١٤٩)، وكذلك خير الدين الزركلى في كتابه (الأعلام) عند ذكره ترجمة الشريف المرتضى يكرّر آراء بعض القدماء ويذكر نفس العبارات التي جاء بها شمس الدين الذهبي دون أن يأتي بشيء جديد أو استدلال وافٍ. (الزركلى، ١٩٨٩م: ٢٧٨) لا يعدّ كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) عند ذكره تأليف الشريف الرضى نهج البلاغة من آثاره، بل يؤكد بأن الصحيح هو أن جامعه هو أخوه الشريف المرتضى (بروكلمان: ٦٤) دون إيراد دليل تاريخي أو علمي.

٣-١- أنواع الشبهات

بالمداقّة في نوعية الشبهات، فيمكننا أن نقسمها إلى أربعة أقسام، وهي :

الف- الشبهات التوثيقية (الإسنادية)

يمكن إجمال أهم الشبهات التوثيقية، فيما يلي: عدم الإتيان بالمصادر والأسانيد، إن الشريف الرضى لم يذكر في صدر كتابه المصادر التي رجع إليها، أو الشيوخ الذين نقل عنهم. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٨) وخلو الكتب الأدبية والتاريخية التي ظهرت قبل الشريف الرضى من كثير مما في نهج البلاغة، حيث أن الكتب الأدبية والتاريخية التي ظهرت قبل الشريف الرضى تخلو من كثير مما في نهج البلاغة (زكى صفوت، ١٩٣٢م: ١٢٢)، والمشاركات في نهج البلاغة، وهو أن بعض ما روى عن على [ع] في نهج البلاغة روى عن غيره في غيره، كقوله: كان لى فيما مضى أخ عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه.

وهذا مروى عن ابن المقفع، وكقوله: الدنيا دار مجاز... يروى لسحبان وائل (الحسيني الخطيب، ١٤٠٥ق: ١١٤)، والإضافات في نهج البلاغة، وهي أن الشريف الرضى رحمه الله بعد فراغه من جمع نهج البلاغة ترك أوراقا من البياض في آخر كل باب من أبوابه الثلاثة لاقتناص الشارد، واستلحاق الوارد، فهل بقي نهج البلاغة على وضعه أم تعرض للزيادات والإضافات كما زعم بعض المشككين؟ (المصدر نفسه: ١٨٦)

ب- الشبهات المذهبية

يمكن إجمال أهم الشبهات المذهبية فيما يلي: التعريض بالصحابة وهو أن في الكتاب من التعريض بصحابة رسول الله (ص) ما لا يُسلم أن يصحّ صدوره عن مثل الإمام على [ع]. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٠) ومظاهر التشيع المذهبي والتعصب الشيعي، وهو أن ما في الكتاب من خطب كثيرة ورسائل متعددة قد اختلقه الشريف الرضى لأغراض مذهبية شيعية (بلبع، ١٩٤٥م: ٩٢) وأن التشيع رُبما قد زين له قبول هذا النتاج الوفير، وتدوينه دون تمحيص، وقد سرّه أن ينسب لجده الإمام [ع] هذا الميراث الضخم من عيون الآثار والحكمة، مع أنه لو نظر لتردد، وللكشف أن بعضاً مما أضيف إلى أمير المؤمنين [ع] لا يشرفه أن ينسب إليه، ولا يزيد في قدره أن يكون من قوله. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٨) وذكر الوصى والوصاية وهو ما في نهج البلاغة من ذكر الوصى والوصاية. (الحسيني الخطيب، ١٤٠٥ق: ١١٢)

ج- الشبهات الشكلية (اللفظية)

يمكن إجمال أهم الشبهات الشكلية (اللفظية) فيما يلي: السجع وتنميق الكلام، وما فيه من السجع والتنميق اللفظي، وآثار الصنعة لم يعهده عصر الإمام [ع] ولا عرفه، وإنما ذلك طراً على العربية بعد العصر الجاهلي وصدور الإسلام وافتتن به أدباء العصر العباسي، والشريف الرضى جاء من بعد ذلك على ما ألفوه فنصف الكتاب على نهجهم وطريقتهم. (المصدر نفسه: ١١٢) ودقة الوصف وغرابة التصوير، حيث أن في نهج البلاغة من دقة الوصف وغرابة التصوير ما لم يكن معروفاً في آثار الصدر الأول الإسلامي كما

تراه في وصف الخفاش والطاووس، والنملة والجرادة، وكل ذلك لم يلتفت إليه علماء الصدر الأول، ولا أدباؤه ولا شعراؤه وإنما عرفه العرب بعد تعريب كتب اليونان والفرس الأدبية (المصدر نفسه) والألفاظ الاصطلاحية الحكيمة والمنطقية، وهو أن في نهج البلاغة بعض الألفاظ الاصطلاحية التي عُرفت في علوم الحكمة من بعد كالأين والكيف ونحوهما ورود بعض الألفاظ التي دُست فيما نقله عن المتكلمين وأصحاب المقولات، من نحو قولهم: (المحسوسات) و(الكل والبعض) وقولهم: الصفات الذاتية والجسمانيات (المصدر نفسه). وحجم نهج البلاغة والتطويل في كلام الإمام (ع)، حيث قال بعض المشككين في نهج البلاغة إن هذا الكلام الوارد فيه كثير لم تكن حياة الإمام (ع) تتسع لأن يقوله ولم تكن ظروفه السياسية والدينية تُمكنه من النطق بهذا القول، ولم يبلغ كلام الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه مجتمعا نصفَ كلام الإمام (ع). (الحوفي، ١٩٧٧م: ٤٢) وتكرار المقاطع الطويلة والقصيرة، حيث أن في خطب نهج البلاغة مقاطع طويلة وقصيرة تُروى على وجهين مختلفين يتفقان في المعنى، ولكن يختلفان في اللفظ. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٧) واستعمال الطريقة العددية والتقسيم المتوازية، وهو أن فيه استعمال الطريقة العددية في شرح المسائل وفي تقسيمات الفضائل والردائل. وهذا الاستعمال في الشروح، وتقسيم الفضائل أو الردائل على أسلوبها، لا نراه في الآداب الجاهلية، بل لا نكاد نعرفه في الأدب الإسلامي إلا بعد ظهور كتاب كليله ودمنة المعرب.

وإذا علمنا أن إدخال الأعداد في الحكمة الأخلاقية، وفي ترتيب المجردات والمعقولات، له الدور المهم في المذاهب المتشعبة عن الطريقة الفيثاغورية أو الأفلاطونية الحديثة، وإذا علمنا أن العرب لم يعرفوا هذه الفلسفة إلا بترجمة كتب اليونان في العصر العباسي الأول، وإذا علمنا أن الشريف الرضي كان من الحكماء الأجلاء، والعلماء المعروفين، وأنه عاش في العصر العباسي الثالث، ساغ لنا هذا الشك. (الجلالي الحسيني، ٢٠٠١م: ٥٤)

د- الشبهات المعنوية (في المضمون)

يمكن إجمال أهم الشبهات المعنوية فيما يلي: ادعاء المعرفة بالمغيبات والإخبار

بالغيب، حيث أن في عبارات الكتاب ما يشم منه ريح ادعاء صاحبه علم الغيب، وهذا أمر يجلب عن مثله مقام علي [ع] ومن كان على شاكلة علي [ع] ممن حضر عهد الرسالة، ورأى نور النبوة. (عبده، لاتا: هـ) والأفكار السامية والحكم الدقيقة وظهور الروح الصوفي الفلسفي، وهو ما ورد في نهج البلاغة من الأفكار السامية والحكم الدقيقة ما لا يصح نسبته إلى عصر الإمام (ع) وظهور الروح الصوفي الفلسفي في كثير من خطبه مما لم يفش في المسلمين إلا في القرن الرابع الهجري، وكذلك أسلوب علم الكلام بما وضع له من مصطلحات بادياً، مما لم يعرف عنه إلا في العصر العباسي، حيث تقدمت هذه العلوم فوضعت أصولها وفُرعت فروعها، وهذا يظهر في بعض خطبه ظهوراً بارزاً كما في خطبة بدء الخلق. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٤) ومافيه من الحث على الزهد وذكر الموت، وهو ما في نهج البلاغة من الحث على الزهد، وذكر الموت، وقرض الدنيا على منهاج المسيح (ع). (الحسيني الخطيب، ١٤٠٥ق: ١١٣)

مما لا شك فيه بأن تناول الشبهات المذكورة والإجابة عنها يحتاج كل منها إلى مقالة على حدة ومستقلة. ففي هذا المجال يتناول الباحث شبهة حجم نهج البلاغة والإسهاب في كلام الإمام علي ويهدف إلى الردّ عليها.

٤- عرض شبهة حجم نهج البلاغة والإسهاب في كلام الإمام علي

قبل أن يتناول الباحث هذه الشبهة ويقوم بعرض تفاصيلها في النهج، فتجدر الإشارة إلى مدلول الإسهاب والإطناب ومدى فاعليتهما في النص. من مزايا اللغة العربية دقة التصرف في التعبير، واختلاف الأساليب باختلاف المقاصد والأغراض، فمن العيب الفاضح عند ذوى المعرفة بها (الاطناب) إذا لم تكن هناك حاجة إليه، "والإيجاز والاختصار" حيث تطلب الزيادة، وقد تحفى دقائق تراكيبها على الخاصة بل العامة، فقد أشكل أمرها على بعض ذوى الفطنة من نابتة القرن الثالث: إبان زهو اللغة ونضرة شبابها. (الهاشمي، ١٣٧٩ش: ٦٠) كما أن هناك فرق بين الإطناب والتطويل حيث يقول الرماني عن الفرق بينهما «أن الإطناب بلاغة والتطويل عسى، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه، وليس كذلك التقصير، لأنه لا بدّ فيه من الإخلال. فأما الإطناب

فإنما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضيع التي يحسن فيها ذكر التفصيل، فلكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعاً يكون به أعظم، فأما التطويل فعيب وعي، لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل، فكان كالسالك طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب، وأما الإطناب فليس كذلك؛ لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحمل في الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب.» (الرماني، لاتا: ٨٠-٧٩)

قال بعض المشككين في نهج البلاغة إن هذا الكلام الوارد فيه كثير لم تكن حياة الإمام (ع) تتسع لأن يقوله ولم تكن ظروفه السياسية والدينية تُمكنه من النطق بهذا القول، ولم يبلغ كلام الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه مجتمعاً نصفَ كلام الإمام (ع) (الحوفي، ١٩٧٧م: ٤٢) وادعوا أيضاً أن هناك إطالة الكلام وإشباع القول في بعض الخطب والكتب كما في عهد الأئمة النخعي المسهب المطبب المشتمل على كثير من الحيلة والحذر والتوكيدات والمواثيق، فضلاً عن أن فيه من النظرات السياسية والقواعد العمرانية ما لم يكن معروفاً في عصر الإمام [ع]. (الجلالي الحسيني، ٢٠٠١م: ٥٤) كما يزعم بعض المشككين أن الكلام في نهج البلاغة يطول إلى حدٍّ لم يؤلف في هذا الوقت، كما في عهد مالك الأئمة النخعي وخطبتي القاصعة والأشباح. قد تحدّث زكي صفوت عن طول عهد الأئمة النخعي، لامن حيث ما ورد فيه من النظريات السياسية والقواعد العمرانية، بل من حيث طوله قائلاً: «وإنما يخالجننا الشك فيه من حيث طوله وإسهابه لاعتبارات نوردها لك:

- أ. إن الخلفاء قبله عهدوا إلى ولائهم فلم يؤثر عنهم ذلك الإسهاب في عهودهم.
- ب. إن الإمام [ع] نفسه ولّى محمد بن أبي بكر الصديق على مصر قبل الأئمة النخعي، وولّى قيس بن سعد بن عبادة عليها قبل ابن أبي بكر، وولّى غير هؤلاء على الأمصار فلم يعهد إليهم بمثل هذا العهد، بل إنَّ عهده لابن أبي بكر عشرة أسطر.
- ج. إن مالك بن الحارث الأئمة الذي كتب له ذلك العهد، كان عضد الإمام [ع] وساعده في صفين، وكان قائد الميمنة، وقد أبلى في الحرب بلاءً حسناً، وكان يستحث من همّة الجيش، كلما آنس منهم مللاً وسامة. وفحوى ذلك أنه كان موضع ثقة تامة من

الإمام [ع]، ومن كان كذلك، فليس بحاجة إلى ذلك القدر من الإسهاب في الحيلة والحذر وتأكيد الموثيق، وكيف يسهب هذا الإسهاب فيكتب له عهداً في مائتين وخمسة وسبعين سطرأ.» (زكى صفوت، ١٩٣٢م: ٢٢٩-٢٣١) هذا ويقول صبرى إبراهيم السيد مؤيداً ما مضى آنفاً من الشك: «والمعروف عن علي [ع] التوسط، إن لم يكن الإيجاز، فقد ذكر صاحب النهج عهده إلى الأشتر في خمس عشرة ورقة، وهذه كمية لم تُعرف ولا شئ منها عن علي [ع] في عهد من العهود، حتى إلى من لم يكونوا كالأشتر محل ثقته منه في معرفتهم للأمر وخبرتهم بالأيام واعتقاده ذلك فيهم، وهذا محمد بن أبي بكر الذى يقول فيه للأشتر حين استقدمه ليؤليه مصر مكانه: (وكنت وليت محمد بن أبي بكر مصر، فخرجت عليه بها خوارج، وهو غلام حدث ليس بذى تجربة للحرب ولا بمجرب للأشياء) لم يزد في عهده إليه حين ولاه مع حاجته إلى المزيد على عشرة سطور، كما رواه الطبرى وعلى ورقة ونصفها، كما هو ثابت ببعض زيادات في النهج، فكيف يكون عهده إلى الأشتر الذى يعتقد فيه ما يعتقد، ومما ليس معه في حاجة إلى إيضاء، بالغاً من الطول المبلغ الذى ذكرنا.» (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٧)

٤-١- الرد على الشبهة

قبل الرد على هذه الشبهة تجدر الإشارة إلى أن العهد ليس نصاً أدبياً جانحاً في الخيال أو نظرات مثالية مجردة لا تمتّ بصلّة إلى الواقع، إنما هو منهج وتعاليم وقواعد وأسس واقعية جسدها أمير المؤمنين (ع) في تجربته السياسية والإدارية المعقدة في إدارة الدولة وقيادة المجتمع المدنى في القرن الأّل للهجرة من تاريخ الإسلام. (الشامى، ٢٠٠٨م: ٣٩-٤٠) يظهر من الشبهة أن هناك نقطتين لا بد من الفصل بينهما:

الأول: كثرة كلام الإمام (ع)، كما قال بعض المشككين في نهج البلاغة إن هذا الكلام الوارد فيه كثير لم تكن حياة الإمام (ع) تتسع لأن يقوله، ولم تكن ظروفه السياسية والدينية تُمكنه من النطق بهذا القول، ولم يبلغ كلام الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه مجتمعا نصف كلام الإمام (ع). (الحوفى، ١٩٧٧م: ٤٢)

الثانى: أن الكلام في نهج البلاغة يطول إلى حد لم يؤلف في زمن الإمام (ع)، وذلك

١. لم يذكر هذا الكلام للإمام (ع) في النسخ المشهورة كصحي الصالح ومحمد عبده.

كما في عهده للأشتر النخعي لما ولّاه مصر، فقد بلغ مائتين وستين سطرًا، وخطبة الأشباح التي بلغت مائة وعشرين سطرًا، والخطبة المسماة بالقاصعة فقد بلغت مائتين واثني عشر سطرًا. (المصدر نفسه) ويضاف إليهما تعذر الحفظ والضبط في أمثالها، خاصة وأن الشريف الرضي قد فرغ من جمعه بعد مقتل الإمام على (ع) بزهاء أربعة قرون بالإضافة إلى تعذر وسائل الكتابة وإعواز القرطاس. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٨)

لكن في الردّ على النقطة الأولى، فسهل جداً لأن الإمام (ع) امتاز على سابقه بمقدرة بيانية لم توهب لهم، وبوراثة بلاغية لم تكن لأحد منهم، وبثقافة أوسع من ثقافتهم، كما امتدّ به العمر، فعاصرهم جميعاً وعاش بعدهم وكانت حياته حافلة بأحداث لم تكن في حياة أحد منهم، وقد اقتضت هذه الأحداث أن يخطب كثيراً، ويحاور كثيراً ويكتب رسائل كثيرة، كما اقتضت حياته وبخاصة قبل خلافته أن يكون أكثر الخلفاء الراشدين فتاوى، وأكثرهم وعظاً، وأغزرهم علماً. ثم إنه تصدى لصراع سياسى ودموى في فترة خلافته، وهى حوالى خمس سنين إلا ثلاثة أشهر، بينه وبين طلحة والزبير، بينه وبين الخوارج، بينه وبين معاوية، وبينه وبين كثير من الأفراد والأسر كآل عثمان وآل طلحة وكأخيه عقيل وابن عمه عبد الله بن عباس، هذا كله يقتضى خطابة ويستدعى حواراً ويتطلب رسائل، ويوحى بتجارب وحكم. (الحوفى، ١٩٧٧م: ٤١) إن نظرة عابرة إلى حياة الإمام (ع) باعتباره خطيباً وكاتباً إلى جانب مسؤولياته للمجتمع الإسلامى، تُثبت بأنّ ما حواه نهج البلاغة أقل مما صدر عن الإمام (ع). مما لا شك فيه أن لمحة عن تواريخ حياة الإمام على (ع) تكشف عن السبب في هذا الحجم الهائل من كلامه والمؤهلات التي تجعله في المستوى المطلوب، فإن كل حادثة مرّت بحياته تقتضى قولاً فصللاً من رجل مثله كان في قمة المسؤولية الملقاة على عاتقه.

ففى سنة ٢٣ قبل الهجرة ولد الإمام على (ع) فى ١٣ رجب، وفى سنة ١٠ قبل الهجرة كان أول من اعتنق الإسلام وآمن بنبوّة رسول الله (ص)، وفى سنة ١ق - بات فى فراش النبى (ص) حفاظاً على حياة الرسول (ص) ليلة الهجرة، وفى سنة ٢ق - تزوّج بسيدة النساء فاطمة بنت رسول الله (ص)، وساهم فى وقعة بدر الكبرى، وفى سنة ٣ق - ساهم فى معركة أحد، وفى سنة (٤-٦) ق - ساهم فى معركة الخندق وخيبر والحديبية، وفى

سنة ٨ ق- ساهم في فتح مكة، وأوفده النبي (ص) إلى اليمن، وفي سنة ١١ ق- كانت وفاة النبي (ص)، وواجه أحداث السقيفة، ولم يشارك فيها لأنه كان مشغولاً بتشييع النبي (ص) ودفنه، وفي نفس السنة توفيت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، وفي سنة (١٣-٢٣) ق - كان يستشيرهُ عمر في إدارة المسلمين، وعاش في سنة ٣٥ ق- ثورة المصريين على عثمان وبعد مقتله بويع الإمام علي(ع) بالخلافة، وواجه في سنة ٣٦ ق- وقعة الجمل بالبصرة، وفي سنة ٣٧ ق- وقعة صفّين، وفي سنة ٣٨ ق- حادثة التحكيم ووقعة النهروان، وأخيراً في سنة ٤٠ ق- اغتيل الإمام(ع) في مسجد الكوفة في ١٩ رمضان وهو يؤدّي صلاة الفجر، وتوفي ٢١ رمضان ودفن في النجف. قد حكم الإمام عليّ (ع) في خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، فإذا جمعنا خطبه (ع) في كل جمعة وعيدى الأضحى والفطر، لبلغ (٢٢٤) خطبة، هذا عدا ما باشرها الإمام (ع) من حروب الجمل وصفّين والنجار، وما يستلزم ذلك من خطب حماسية في الاستنهاض والدفاع والحرب، فلا غرابة في المأثور عن شخصية قيادية كعلي بن أبي طالب(ع) الذي قضى ٦٣ عاماً مرافقاً قضايا الإسلام الكبرى ومساهماتها فيها مساهمة فعّالة في ما تقتضيه المصلحة الإسلامية العليا، لما فيه من مؤهلات العلم والتجربة، فلا يُستنكر منه شيء من خطب ورسائل وحكم رويت في نهج البلاغة. (الجلالي الحسيني، ٢٠٠١م: ٥٢-٥٣)

إضافة إلى، هذا ما يؤيد كثرة كلام الإمام(ع) في الخطب هو قول المسعودي المورخ الشهير الذي يشير إلى عدد الخطب المحفوظة حين يقول: والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة ونيف وثمانون خطبة. (المسعودي، لاتا: ٤٥٩) فعلى هذا الأساس، إن ما بين أيدينا من الخطب في نهج البلاغة هو نصف ما ألقى الإمام (ع) ولو أضيفت عليها الرسائل والحكم لثبّت أنّ ما حوى نهج البلاغة من كلام الإمام (ع) أقل مما صدر عنه (ع). أما النقطة الثانية وهي أن الكلام في نهج البلاغة يطول إلى حد لم يؤلف في زمن الإمام(ع) فيمكن الردّ عليها بالإطناب والمساواة والإيجاز كلها تابعة لما تقتضيه الحال.

٢-٤- معالجة الأسلوب والأسلوبية

يمكن معالجة الأسلوب والأسلوبية بالاتجاهات الثلاثة:

١- من زاوية المخاطب أو المرسل

٢- من زاوية المخاطب أو المرسل إليه

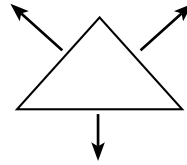
٣- من زاوية النصّ

من المؤكّد أن بين هذه العناصر الثلاثة علاقة وثيقة لا يمكن تفكيكها، كما لا يمكن معالجتها على حدة دون آخر. أما النصّ سواءً أكان خطابة أم رسالة فله دور بارز في الأسلوبية، أما من حيث كميته وحجمه وهو موضوع بحثنا هذا، فمن الممكن أن يكون مطناً مسهباً، أو أن يكون متوسطاً أو أن يكون موجزاً مختصراً بعيداً عن الإطناب والإسهاب.

ولكنّ الذي يميّز أن يُطنّب في موضع أو يتوسط في موضع ثانٍ أو يوجز في موضع آخر، هو المخاطب والمرسل اللذين يصدر عنهما النصّ ولديهما الحق هذا التمييز، لأنّهما هما اللذان يعرفان المخاطب والمرسل إليه ومقتضياتهما وحاجاتهما، والظروف التي يعيش المخاطب والمرسل إليه فيها، فيمكن أن يحتاج المخاطب إلى شرح مسألة أو بيان أمر بسبب أهميته فعندئذ يسهب المخاطب في هذا الموضع.

فإذن على أساس قواعد الأسلوب والأسلوبية لا يمكن النظر إلى النصّ وإطنابه وإيجازه بغضّ النظر عن الضلعين الآخرين من هذا المثلث، ولا سيما ضلع خالق النصّ وهو المخاطب؛ إذن يهدف الباحث إلى تجاوز النصّ ودراسة المخاطب أو المرسل، ثم يتناول المخاطب أو المرسل إليه.

المخاطب والمرسل إليه النصّ (الخطبة والرسالة)



المخاطب والمرسل

١-٢-٤- المخاطب أو المرسل

لا بد لكل باحث أن ينظر إلى أسباب إطناب النصّ وإيجازه من الجوانب المختلفة والزوايا الشاملة، فإذن لو أوجز خطيب خطبته، أو كاتب رسالته لأسباب مختلفة واتّخذ أسلوباً إيجازياً، فاتّخذها هذا الأسلوب لا يمنعها عن اتّخاذ أسلوب الإطناب والإسهاب في موضع آخر. وفي الحقيقة هما اللذان يميّزان الإيجاز في قولهما تارةً والإطناب تارةً

أخرى. بمراجعة خطب الإمام (ع) ورسائله في نهج البلاغة نجد التطويل والتوسط والإيجاز فيها تجرى حسب المقامات والأحوال والأماكن وفيما يلي حاول الباحث أن يأتي بجداول الخطب والرسائل المطوّلة والمتوسطة والقصيرة^١ على حدة، مع جدول آخر يشير إلى الأماكن التي ألفت فيها هذه الخطب محللاً إحصائياً للردّ على الشبهة المذكورة:

جدول رقم (١) لإحصاء الخطب على أساس حجمها

نوع الخطب	رقمها	جمعها	بالمائة
الطويلة	١-٨٣-٩١-١٠٩-١٦٠-١٦٥-١٧٦-١٨٢-١٨٣-١٨٥-٢٢١-٢١٦-١٩٨-١٩٣-١٩٢-١٨٦	١٦	٦/٦٤%
المتوسطة	٢-٣-١٧-٢٣-٢٧-٣٢-٣٤-٧٢-٨٦-٨٧-٩٠-٩٣-٩٤-٩٧-٩٩-١٠٣-١٠٥-١٠٦-١٠٨-١١١-١١٣-١١٤-١١٥-١٢٢-١٢٤-١٢٥-١٢٧-١٢٨-١٣٢-١٣٣-١٤٣-١٤٧-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٥-١٥٦-١٥٧-١٦١-١٦٣-١٦٤-١٦٦-١٧٢-١٧٣-١٧٨-١٩٠-١٩١-١٩٤-١٩٥-١٩٩-٢٠٥-٢١٠-٢١٤-٢٢٣-٢٢٢-٢٢٤-٢٢٦-٢٣٠	٦١	٢٥/٣١%
القصيرة	٤-٥-٦-٧-٨-٩-١٠-١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٤-٢٥-٢٦-٢٨-٢٩-٣٠-٣١-٣٣-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٤٨-٤٩-٥٠-٥١-٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٥٦-٥٧-٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٢-٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٦٧-٦٨-٦٩-٧٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٤-٧٥-٧٦-٧٧-٧٨-٧٩-٨٠-٨١-٨٢-٨٤-٨٥-٨٨-٨٩-٩٢-٩٥-٩٦-٩٨-١٠٠-١٠١-١٠٢-١٠٤-١٠٧-١١٠-١١١-١١٢-١١٦-١١٧-١١٨-١١٩-١٢٠-١٢١-١٢٣-١٢٦-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٤-١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٨-١٣٩-١٤٠-١٤١-١٤٢-١٤٣-١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٥-١٥٦-١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦٠-١٦١-١٦٢-١٦٣-١٦٤-١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٢-١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٦-١٧٧-١٧٨-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٢-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤-٢١٥-٢١٦-٢١٧-٢١٨-٢١٩-٢٢٠-٢٢١-٢٢٢-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨-٢٢٩-٢٣٠-٢٣١-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠-٢٤١	١٦٤	٦٨/٠٥%

١. المعيار لإحصاء الحجم: إنّ الخطب والرسائل التي تتراوح بين سطرين واثني عشر سطراً فهي القصيرة، والتي تتراوح بين اثني عشر سطراً وأربعين سطراً فهي متوسطة، والتي تتراوح بين أربعين سطراً وما فوق ذلك فهي الطويلة.

جدول رقم (٢) لإحصاء الرسائل على أساس حجمها

نوع الرسائل	رقمها	جمعها	بالمائة
الطويلة	٥٣-٣١	٢	٢/٥٣%
المتوسطة	٣-٩-١٠-١٧-٢٥-٢٧-٢٨-٣٧-٤١-٤٥-٤٧-٥١-٦٢-٦٤-٦٥-٦٩	١٦	٢٠/٢٥%
القصيرة	١-٢-٤-٥-٦-٧-٨-١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٦-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٤-٢٦-٢٩-٣٠-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤٢-٤٣-٤٤-٤٦-٤٨-٤٩-٥٠-٥٢-٥٤-٥٥-٥٦-٥٧-٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٣-٦٦-٦٧-٦٨-٧٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٤-٧٥-٧٦-٧٧-٧٨-٧٩	٦١	٧٧/٢٢%

١-٢-٤- تحليل الإحصاء

١- كما يبدو من الجداول السابقة إن الخطب والرسائل الطويلة لا تنحصر في خطبتي القاصعة والأشباح وكتاب الإمام (ع) إلى مالك الأشتر النخعي كما ادعى مثيرو هذه الشبهة، بل على أساس هذا الإحصاء فإن نسبة الخطب والرسائل الطويلة الموجودة في نهج البلاغة (كلها ١٨)، هي ستة أضعاف أكثر مما ادعى المشككون (كلها ٣) (نهج البلاغة، ١٩٦٨م: ٧)، يلاحظ القارئ من كلام جميع المشككين القدامى والمعاصرين أنهم يشيرون إلى خطبتين ورسالة واحدة في هذا الصدد مما يدل على تقليد كل واحد من سبقه، وتكرار مقولته دون الرجوع إلى نهج البلاغة الذي يتضمن ١٨ خطبة أو رسالة من هذا النوع.

٢- بالمقارنة بين كتاب الرقم (٣١) الذي كتبه الإمام (ع) لابنه الحسن (ع) وصية له وبين عهده (ع) لمالك الأشتر النخعي نحصل على نتائج منها:

- الف- كلتا الرسالتين مطولتان وحجمها كثير بالنسبة إلى سائر الرسائل .
- ب- رغم أن كلا المتلقين لهاتين الرسالتين من معتمدى الإمام (ع) وأعضاده ولكن الإمام (ع) أظن في كتابته إليهما واتخذ أسلوب التطويل لهما. وهذا يدل على أن قرابة مخاطب الإمام (ع) ومكانته عنده لا تؤثر في إسهابه في الكلام (كما ادعى المشككون

الذي سيرد كلامهم فيما بعد) وعدم الإيجاز في كتابه، بل العكس أن الإمام (ع) هو الذي يميّز ضرورة الإطناب في كلامه على أساس استيعاب المتلقى، ولو كان من أقرابه وأعضاده أولاً، وعلى أساس الاقتضاءات والأحوال التي تكتب الرسالة بسببها ثانياً.

ج- إن للخطب الطويلة مواضيع وقواسم مشتركة يمكن اختصارها فيما يلي:

١- الخطبة (١): تحتوى على حمد الله وخلق العالم والملائكة واختيار الأنبياء ومبعث النبي والقرآن والأحكام الشريفة.

٢- الخطبة (٨٣): وهى تسمى بالغراء وتحتوى نعوت الله جلّ شأنه، ثم الوصية بتقواه والتنفير عن الدنيا.

٣- الخطبة (٩١): وهى تسمى بالأشباح وفيها وصف الله تعالى وصفاته في القرآن، ووصف السماء والملائكة والأرض.

٤- الخطبة (١٠٩): وهى في بيان قدرة الله وانفراده بالعظمة وأمر البعث وزهد النبي.

٥- الخطبة (١٦٠): وهى تحتوى على عظمة الله وحمده وتوصيف أنبيائه.

وقس على هذا سائر الخطب الطويلة، وعلى أساس ما أشير إليه، نجد قواسم مشتركة بين هذه الخطب، وهى: توصيف الله تعالى وحمده وبيان قدرته والدعوة إلى تقواه وبيان فضائل القرآن، وأوصاف مخلوقات الله من السماء والأرض وملائكته وأنبيائه والحيوانات المثيرة للعجب التى تدل على عظمة خالقها، والحث على العمل ولزوم طاعة الله ووصف المعاد وكل هذه القواسم تحتتم بأصول الدين في الإسلام وهى التوحيد والنبوة والمعاد والعدل والإمامة، فلذا نجد سبب إطناب الإمام (ع) في كلامه هو أهمية الأصول الاعتقادية وتبيينها.

لقد خلّص كاشف الغطاء ما ورد آنفاً بقوله: إن الإطناب والإيجاز والمساواة لا يحتاج فيها إلى أن تؤثر عن النبي (ص) أو عن أحد خلفائه الراشدين، ولم يكن أحدها مرسوماً في الإسلام بحيث يجب اتباعه، بل هى تابعة لما تقتضيه المصلحة وتفرضه الحاجة وربما كانت أحوال وغايات لا بد فيها من ذلك وشتان ما بين زمانه (ع) وأزمته الخلفاء.

(كاشف الغطاء، ١٩٥٤م: ٢٢٧)

جدول (٣)، عن الأماكن التي ألقى الإمام (ع) بعض خطبه فيها

رقمها	أماكن بعض الخطب	جمعها
١٢	الخطب التي ألقاه الإمام (ع) بالمدينة قبل البيعة	١٢
١٨	الخطب التي ألقاهها الإمام (ع) بالمدينة بعد البيعة	١٨
١٠	الخطب التي ألقاهها الإمام (ع) بالبصرة	١٠
٦	الخطب التي ألقاهها الإمام (ع) بذي قار	٦
٣١	الخطب التي ألقاهها الإمام (ع) بالكوفة	٣١
٩	الخطب التي ألقاهها الإمام (ع) في النهروان	٩
١٧	الخطب التي ألقاهها الإمام (ع) في صفين	١٧
٨	الخطب التي ألقاهها الإمام (ع) في الحربية (المجل)	٨
٢	الخطب التي ألقاهها الإمام (ع) بالنخيلة	٢
١	الخطب التي ألقاهها الإمام (ع) بالربذة	١

٢-١-٢-٤- تحليل الإحصاء

بالنظر إلى مضامين الخطب وأماكنها، نجد أن هذه الخطب توزعت على مضامين تناسب المكان الذي قيلت فيه، وهذا ما يؤكد صحة نسبتها إلى الإمام (ع)، إذ يصعب على من يقوم بالنحل أن يراعى جميع ما يرتبط بظروف المكان، حيث أن هناك دقائق ترتبط بالتاريخ، كما أن هناك أشياء ترتبط بجزئيات، لا يمكن للمنتحل أن يعرفها فضلاً

عن أن يختلقها، وهذه خلاصة لمضامين الخطاب حسب أماكنها:

١-٢-١-٤- موضوع الخطاب في المدينة قبل البيعة

يظهر في بعض الخطب التي ألقاها الإمام (ع) في المدينة قبل مبايعة الناس له بالخلافة، أنه تناول مواضيع عدة يرتبط جميعاً بمناسبات مختلفة، مثل خطبته عند غسل رسول الله (ص)، وعند دفن السيدة فاطمة (س) أو خطبته عند الشورى وإجابته عن استشارة عمر بن الخطاب، كما أننا نلاحظ دفاعه عن نفسه في الاتهام الموجه إليه بقتل الخليفة عثمان، كما نهى عن الفتنة وتحذرت عن فلسفة سكوته بعد النبي (ص) وأشياء أخرى كلها ترتبط بتلك المناسبات ولانرى فيها خطبا تتناول قضايا أخرى مما يدل على اهتمام الإمام (ع) في هذه الفترة بالقضايا الراهنة في الدولة الإسلامية آنذاك.

٢-٢-١-٤- موضوع الخطاب في المدينة بعد مبايعة الناس له وقبل الوقائع

الثلاث

يظهر في غالبية هذه الخطب أمرٌ قد يبدو غريباً إذ أن الإمام (ع) قلماً تحدث فيها عن المناسبات. فأكثر هذه الخطب في وعظ الناس وذكر صفات الله وأوصاف رسول الله (ص) وخصائص القرآن ووصيته الناس بالتقوى والإسراع بالخيرات .

٣-٢-١-٤- موضوع الخطاب في البصرة وعند وقعة الجمل وفي النخيلة وذى

قار

نرى في هذه الخطب أيضاً تناسباً تاماً بين المواضيع الواردة فيها وبين أمكنتها، ونراه (ع) في البصرة يذم أهلها بعد وقعة الجمل كما أنه يعظ الناس ويوصيهم بالتقوى. كذلك نجد خطبه عند وقعة الجمل، حيث يتحدث عن طلحة والزبير ويتأسف على قتلى الجمل. وفي معسكره بالنخيلة يحث الناس على الجهاد، ويتحدث عن قيمة الاستعداد العسكري، وفي ذى قار نجده يقول عن تمجيد الله والدعوة إلى التقوى ووصف النبي (ص) والحديث عن البعثة، وما إلى ذلك من المواضيع.

٤-٢-١-٢-٤- موضوع الخطب في الكوفة

نلاحظ أن الإمام (ع) في أكثر خطبه في الكوفة يتحدث عن أمور مثل الخلافة والصبر على ما حصل فيها ومبايعة الناس إياه، كما يتحدث عن الفقراء ويشجعهم على الزهد والعفاف، ويطلب من الأغنياء الرحمة والإنصاف، وفي الخطب الأخرى نرى مضامين مثل الاستنهاض على الجهاد، ويصف في بعضها الخوارج كما يذم أهل العراق في البعض الآخر منها، ويوبخهم على ترك القتال.

ومن الخطب الأخرى تلك التي نجد فيها وصفاً لله وفضائل الرسول (ص) ووعظ الناس وذكر الموت ووصف المتقين ووصاياه، وهي مواضيع متعددة اقتضتها الضرورات، وهي تُطلعنا على الظروف التاريخية والأحداث التي مرت بالإمام (ع) في الكوفة.

٥-٢-١-٢-٤- موضوع الخطب في النهروان

نلاحظ في هذه الخطب أن المواضيع لا تتجاوز ما جرى هنالك من الحرب الطاحنة بينه وبين الخوارج، حيث نراه يُخَوِّف أهل النهروان ويتنبأ بما سيجري بعد الحرب كما ينهى أصحابه عن قتل الخوارج بعده، ثم نراه في بعض الخطب يصف نفسه في تلك المواقف.

٦-٢-١-٢-٤- موضوع الخطب في صفين

نلاحظ أن الإمام (ع) يدعو في بعض الخطب إلى طاعة الله وعن الظروف الطارئة في صفين وما قاله أثناء معركة، كما تكلم فيها عن حق الوالي وحق الرعية في التنظيم والتشكي.

فإذا ما رجعنا إلى هذه الخطب كل على حدة لوجدنا أنها تتناسب مع الظروف التي أُلقيت فيها، كما أنها تتناول جزئيات يعجز المنتحلون مهما كانت قدراتهم عن الإتيان بها مما يدلّ دلالة واضحة على صحة نسبتها إلى الإمام (ع). مما يلفت الانتباه في هذا الصدد، وجود نماذج كثيرة من الخطب المطوّلة والرسائل المسهبة عن البلغاء في العصرين الجاهلي والإسلامي، فمراجعة النصوص الأدبية في صدر الإسلام نواجه أمثال "قيس

بن خارجة بن سنان" و"سحبان وائل" اللذين اشتهرا بالتطويل والإسهاب في خطبهما. يقول الجاحظ: وقد رووا أن قيس بن خارجة بن سنان خطب يوماً إلى الليل فما أعاد كلمة ولا معنى. (الجاحظ، لاتا: ٥٠) وقد رووا أيضاً أن وفداً من خراسان قدم على معاوية وفيهم سعيد بن عثمان، فطلب سحبان وائل فدخل عليه فقال: تكلم، فقال: انظروا: لى عصا تقوم من أودى، قالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه، فقال معاوية: هاتوا عصاى، فأتوا بها فأخذها، ثم قام وتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ما تتخَّح ولا سعل، ولا توقف، ولا ابتداءً في معنى فخرج منه وقد بقى عليه منه شيء، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده، فأشار إليه: أن لا تقطع علىّ كلامى، فقال معاوية: الصلاة، قال: هى أمامك ونحن فى صلاة وتحميد، ووعد ووعيد، فقال معاوية: أنت أخطب العرب، فقال سحبان: والعجم والجن والإنس (المصدر نفسه: ١٧١-١٧٢)، ومع هذا الاسترسال فى الكلام، وطول النفس فى الخطابة نراه يوجز أحياناً حتى يجيء فى أدنى غاية من غاية الاختصار.

يقول زكى مبارك: «وسحبان وائل الذى عرف بالتطويل وإنه كان يخُطب أحياناً نصف يوم، أثرت عنه الخطب القصيرة الموجزة، وذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبية على ذلك العصر، وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئاً آخر غير مراعاة الظروف، ورسائل على بن أبى طالب [ع]، وخطبه، ووصاياه، وعهوده إلى ولاته تجرى على هذا النمط، فهو يطيل حين يكتب عهداً ليبيّن فيه ما يجب على الحاكم فى سياسة القُطر الذى يراعه، ويوجز حين يكتب إلى بعض خواصه فى شيء معين لا يقتضى التطويل.» (مبارك، لاتا: ٥٩)

باستخدام الأسلوبية المقارنة التى ورد ذكرناها سابقاً^٢ وبمقارنة خطب القاصعة

١. هو سحبان بن زفر بن أباس الوائلى خطيب مفصح يضرب به المثل فى البيان أدرك الإسلام وأسلم ومات سنة (٥٤ق). (الحسينى الخطيب، ٢٠٠١م: ١٧٢)

٢. إن هذه الأسلوبية تدرس أساليب الكلام فى مستوى معين من أساليب اللغة الواحدة لتبين خصائص كل أسلوب عن طريق مقارنة بعضها ببعض، لتقدير دور كل أسلوب فى بناء الجمال الفنى. ولا بد من حضور نصّين مختلفين أو أكثر مع اشتراكهما فى الموضوع أو الغرض لمؤلف واحد أو لأكثر، أو دراسة نصّين أو أكثر لمؤلف واحد مع اختلاف الموضوع أو الجنس الأدبى، ومقارنة الأساليب المختلفة فى ذلك.

والأشباح والعهد للمالك الأشتر النخعي باعتبار حجمها وتطويلها^١ وما خطب قيس بن خارجة بن سنان يوماً إلى الليل، أو ما تكلم سبحان وائل عند معاوية بن أبي سفيان منذ صلاة الظهر إلى صلاة العصر يثبت لنا أولاً: أنّ التطويل في بعض كلام الإمام (ع) لم يكن شيئاً لم يؤلف في زمانه، بل كان الإسهاب معروفاً عند البلغاء في الجاهلية والإسلام، وثانياً: إطناب الكلام في أسلوب خطيب أو كاتب لا يُجبره في بقاءه في هذا الأسلوب ولا يحصره فيه، بل بإمكانه أن يوجز في موضع آخر، ولديه الحرية في اختيار ما تقتضيه الحال حيث يمكنه أن يسهب في موضع أو يوجز في موضع آخر.

نظراً لأن المشككين يركزون في تشكيكهم على عهد الإمام (ع) لمالك الأشتر النخعي أكثر من غيره، فالأحرى ذكر ما طرحه زكي صفوت باشا من مآخذ على هذا العهد وإطناب الإمام (ع) في نقاط هي: ١- إن الخلفاء قبله عهدوا إلى ولايتهم فلم يؤثر عنهم ذلك الإسهاب في عهودهم. ٢- إن الإمام [ع] نفسه ولّى محمد بن أبي بكر الصديق على مصر قبل الأشتر النخعي، وولّى قيس بن سعد بن عبادة عليها قبل ابن أبي بكر، وولّى غير هؤلاء على الأمصار فلم يعهد إليهم بمثل هذا العهد، بل إنّ عهده لابن أبي بكر عشرة أسطر. ٣- إن مالك بن الحارث الأشتر الذي كُتِب له ذلك العهد، كان عضد الإمام [ع] وساعده في صفين، وقد قدّمنا أنه كان قائد الميمنة، وقد أبلى في الحرب بلاء حسناً، وكان يستحثّ من همّة الجيش كلما آنس منهم مللاً وسامة. وفحوى ذلك أنه كان موضع ثقة تامة من الإمام [ع]، ومن كان كذلك فليس بحاجة إلى ذلك القدر من الإسهاب في الحيلة والحذر وتأكيد الموثيق، وكيف يسهب هذا الإسهاب فيكتب له عهداً في مائتين وخمسة وسبعين سطرًا. (زكي صفوت، ١٩٣٢م: ٢٢٩-٢٣١) قبل أن نرد على ما ادعاه زكي صفوت، فجدير بالذكر أن نشير إلى أن «شكوكه في ترجمته لعلي بن أبي طالب (ع) حيث قال: في نهج البلاغة جمع الشريف الرضى ما أثر عن الإمام من خطب ورسائل وحكم ومواظب ضمّتها كتاباً واحداً سمّاه نهج البلاغة انتهى من تأليفه في

١. تحدث العلامة الشهرستاني عن طبيعة التطويل في الخطب المذكورة بمقارنتها بالنصوص والآثار الباقية في العهد الجاهلي والإسلام قائلًا: إنّها ليست بأعجب من رواية المعلقات السبع والقصائد الأخرى من الأوائل، ومن الخطب والمأثورات الضافية التي رُويت عن النبي المصطفى (ص) وعن غيره ممن تقدم عليه زمانه أو تأخر. (الشهرستاني، ١٣٥٢ق: ٥٢)

رجب سنة ٤٠٠ق، وقد ترك أوراقاً بيضاء في آخر كل باب رجاء أن يقف على شيء بعد الجمع فيدرجه في المحل اللائق به.» (الأسدي، ٢٠٠٧م: ٥٥) لعل القارئ المتعمق في آراء صفوت، عندما يواجه هذه السطور من شكوكه في النهج خاصة "ترك أوراقاً بيضاء"، فبادئ ذي بدء، يدرك أن آراء صفوت في تقييم النهج أو التعريف به، قد يتجلى فيها الشك والريبة، أو عدم المصادقية ولا تتبنى على خطوات استدلالية صريحة، بل إنه يصدر حكماً شفوياً دون تتبع طريقة الاستدلال، لكن الباحث يتجاوز عن هذه النقطة، لكي يردّ على آرائه بأدلة وبراهين منطقية، كما يلي:

ففى الإجابة عن المؤاخذة الأولى: فقد عولجت فيما مضى فخلاصته أن الإطناب والإيجاز والمساواة كلها تابعة لما تقتضيه الحال والمصلحة وما تفرضه الحاجة، والذي يميّز أين يُطنب تارة ومتى يوجز تارة أخرى هو صاحب الكلام والمخاطب الذي يعرف الظروف والاقتضاءات، كما أن ما يشابه «هذا القدر من الطول في الخطب ليس غير مقبول عقلياً، بل إن المعروف في ذلك العهد والمتداول بين أيدينا في خطب النبي وخطب أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية لا يبلغ هذا الحد ولا نصفه، وهذه خطبة النبي في حجة الوداع، وهي تحوى ضرباً كثيرة من التشريع لا تزيد على اثنين وثلاثين سطراً، وأن اعتقادنا أن علياً انفرد بأنه أخطب الخطباء بعد الرسول لا يحملنا لى التسليم بأنه انفرد بطول الخطب دونهم.» (الأسدي، ٢٠٠٧م: ٥٨) ومن زاوية أخرى، فكان عهد الإمام على (ع) عهد أزمات وحروب وقلاقل، ولذا كان يتوجب على الإمام أن يطيل في أمد الخطبة ليجيب على استفهامات الناس ويردّ علس شبهات أصحاب التيارات السياسية والأفكار المناوئة وكان ينبغي عليه (ع) أن يحصن الأمة من مظاهر الانحراف والتراجع. (المصدر نفسه: ١١٦)

و رداً على المؤاخذة الثانية: فلاشك بأن هناك اختلافين بارزين في الموضوع: الأول هو أنّ كل متلقٍ يختلف عن الآخر، كما أنّ هناك فرقا بين محمد بن أبي بكر وقيس بن سعد وبين محمد بن أبي بكر ومالك الأشتر النخعي، والثاني هو ما يخصّ اختلاف الظروف، فإذا تصفحنا التاريخ يبدو لنا أن الظروف التي كان يحكم فيها محمد بن أبي بكر ويتولى الأمور في مصر كانت تختلف تماماً عن الظروف والأوضاع التي شهدتها مصر

حينما ولى الإمام (ع) مالك الأشتر النخعي عليها (تلك الظروف التي لا يحاول هذا البحث الحوض في تفاصيلها خشية التطويل)، فإذن لاشك أن لكل ظرف اقتضاءاته الخاصة به.

وللإجابة عن المؤاخذة الثالثة: فهي أن مالكا كان موضع ثقة من أمير المؤمنين (ع)، فلا يحتاج إلى التوصية وإلى الإسهاب في الحيلة وأن محمد بن أبي بكر أولى بهذا العهد من الأشتر النخعي، فقسم من الجواب مرّ أنفاً، وهو يعود إلى استيعاب المتلقى، وقسم آخر هو أن الحال اقتضت أن يكتب له الإمام (ع) هذا العهد ليقراه على الناس فيعلموا ما لأمر المؤمنين من الحكمة واليقظة والعناية بأمر الرعية وغير ذلك. (كاشف الغطاء، ١٩٥٤م: ٢٢٨)

٢-٢-٤- من زاوية المخاطب أو المرسل إليه

إضافة إلى ما سبق، فإننا من خلال إمعان النظر في مضامين العهد نذكر أن كتاب الإمام (ع) موجهٌ إلى نوعين من المخاطبين هما:

- ١- المخاطب الخاص وهو مالك الأشتر النخعي.

- ٢- المخاطب العام وهو يشمل الناس الذين عاشوا في مصر آنذاك والذين يأتون بعدهم ويريدون أن يتعرفوا على حقوقهم وحدودهم وواجبات الولاية تجاه الرعية والتي حددها الإمام (ع) للولاية.

إننا نجد مثل ذلك في كثير من الآيات القرآنية حيث ينقسم المخاطب فيها إلى قسمين، فمثلاً نرى أن لقمان حينما يخاطب ابنه ويعظه في الآية الكريمة: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان/١٧-١٨)

فالمخاطب الخاص هو ولد لقمان الذي وعظه أبوه، والمخاطب العام هو كل مسلم أنزل الله هذه الآيات هدايته ولكي يُقيم الصلاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر

١. راجع التحليل الإحصائي للجدول (١) و(٢) السابقة: المقارنة بين كتاب الرقم (٣١) وعهد الإمام (ع) لمالك الأشتر النخعي.

ويصبر على ما أصابه، وعلى هذا الأساس فعهد الإمام (ع) لمالك الأشتر لا يختص بزمان خاص، بل هو دستور شامل أصدره الإمام (ع) لكل من يريد أن يتعرف على حقوق الرعية على الوالى وحقوق الوالى على الرعية فى الإسلام، وهو يمثل القدوة والمثل الأعلى للقيم الاجتماعية والسياسية فى الإسلام حسب رؤية الإمام (ع)، وفى الحقيقة فإن الإمام (ع) رسم لكل والٍ واجبه تجاه الناس من الجوانب المختلفة السياسية والاجتماعية والعمرانية ونحوها.

كما يأمر (ع) مالك الأشتر فى بداية عهده له بأربع وظائف رئيسة إذ يقول: «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْطَرِّ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ - حِينَ وُلِّاهُ مِصْرَ جَبَايَةَ خَرَايجَهَا وَجِهَادَ عَدُوِّهَا - وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا.» (نهج البلاغة: الكتاب ٥٣). ويخاطبه قائلاً: «ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ - أُنَى قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا ذُؤْلٌ قَبْلَكَ - مِنْ عَدْلٍ وَجُورٍ - وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ - فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوَلَاةِ قَبْلَكَ - وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ - وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ - بِمَا يُجْرَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ - فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ - فَاْمَلِكْ هَوَاكَ وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَجِلُّ لَكَ - فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ وَأَشْعُرَ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ - وَالْحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ.»

فإذن الأوامر الواردة فى النصوص السابقة لتهديب النفس مثل عبارة: «فَاْمَلِكْ هَوَاكَ وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَجِلُّ لَكَ» أو طريقة مواجهته الرعية فى الرحمة والمحبة واللفظ كقوله: «أَشْعُرَ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ - وَالْحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ» ليست تختص مالكاً فحسب، بل هى الأوامر والنواهى لكل من يتولى الحكم والمسؤولية فى الإسلام. للإجابة عن موضوع تعذر الحفظ والضبط فى أمثال عهد مالك وتعذر وجود وسائل الكتابة وإعواز القرطاس، فىمكن القول إن العناية بالحفظ والكتابة كانت فى زمن الراشدين أهم وأعظم من قبله، وعتوا ابن عباس بأنه كان يحفظ القصائد الطوال لأول مرة من سماعها، وكان مثله فى عامة العرب، (الشهرستانى، ١٣٥٢ق: ٣٢) والاهتمام بحفظ خطب الإمام (ع) كان أكثر، كما أكد على ذلك الأمر المسعودى فى كتابه. (المسعودى،

لاتا: ٤٥٩)

من جانب آخر فإنّ إعواز القرطاس كان في مبدأ الإسلام قبل أن ينتشر في الآفاق وتكثر فتوحاته وتتسع بلاده، وأما في زمن ظهور خلافة أمير المؤمنين (ع) فلم يكن الأمر كذلك، فإن المسلمين قد فتحوا بلاداً كثيرة وملكوا دول الأكَاسرة والقباصرة فلم يكن يعوزهم ذلك. قال ابن أبي الحديد: وكانت الكوفة يومئذ تجبى لها ثمرات كل شيء وتأتي إليها هدايا الملوك من الآفاق (ابن أبي الحديد، ١٩٦٧م: ٢٨٤) على أنه قد وُجد من الكتب السماوية والصحف الدينية ما هو أطول من هذا العهد (كاشف الغطاء، ١٩٥٤م: ٢٢١)، وهذا كله دليل على أن القرطاس وعدم توفيره لم يكن يمنع من إلقاء مثل هذه الخطب، وإن شكوك المشككين وما أخذهم غير واردة على الإطلاق.

النتائج

من خلال ما تقدم نصل إلى نتائج، فيما يلي:

١- تقول شبهة الإسهاب والإطناب في نهج البلاغة عن أن الكلام الوارد فيه كثير لم تكن حياة الإمام (ع) تتسع لأن يقوله ولم تكن ظروفه السياسية والدينية تُمكنه من النطق بهذا القول، ولم يبلغ كلام الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه مجتمعا نصفَ كلام الإمام (ع)، ففي الردّ عليه، لم يكن الإطناب والتطويل والإسهاب في خطب نهج البلاغة، اعتبارياً وبدن غرض وجدوى، بل اتضح هذا من خلال الأثر الذي يتركه على المتلقى والمخاطب، كما أن تركه يضيّع على المتلقى فائدة ثمينة.

٢- وجود نماذج كثيرة من الخطب المطوّلة والرسائل المسهبة عن البلغاء في العصرين الجاهلي والإسلامي يدل على أنّ التطويل في بعض كلام الإمام (ع) لم يكن شيئاً لم يؤلف في زمانه، بل كان الإسهاب معروفاً عند البلغاء في الجاهلية والإسلام.

٣- بمراجعة خطب الإمام (ع) ورسائله في نهج البلاغة نجد التطويل والتوسط والإيجاز فيها تجري حسب المقامات والأحوال والأماكن، كما لاحظنا موضوع الخطب في المدينة قبل البيعة وبعدها يختلف عما شابهه في الكوفة وصفين والنهروان وغيرها من الأمكنة، كما أنّ كل متلقٍ يختلف عن الآخر، والإمام (ع) هو الذي يميّز ضرورة الإطناب

في كلامه على أساس استيعاب المتلقى، ولو كان من أقاربه وأعضاده أولاً، وعلى أساس الاقتضات والأحوال التي تكتب الرسالة بسببها ثانياً، وفيما يخص الأخذ على عهد مالك الأستر، فلا شك أن هذا العهد صورة كاملة عن سلامة نفس الإمام وبعده عن أدراة الرئاسة وقذارة الدنيا وتحذير لمن ولّاه مصر وهو مالك، لكن الإطناب فيهما يتجذز في أن هذا العهد يخاطب المتلقى العام الذي يأتي بعد مالك ويلزم عليه أن يمشی في سواء السبيل، فشبهة الإطناب فيه غير وارد، ولا مبرر لقبوله.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبراهيم السيد، صبرى. ١٩٨٦م. نهج البلاغة. تقديم العلامة عبدالسلام محمد هارون. الدوحة: دار الثقافة.

ابن أبى الحديد. ١٩٦٧م. شرح نهج البلاغة. بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثانية. بيروت: دار إحياء التراث العربى.

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد. لاتا. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة.

ابن منظور. لسان العرب. ١٩٨٨م. ابن منظور. لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربى.
إسبر، محمد على. ١٣٦٢ش. نهج البلاغة نبراس السياسة منهل التربية. مقال تحت عنوان. نهج البلاغة بعد ألف عام. قم: بنىاد نهج البلاغة.

الأسدى، عادل حسن. ٢٠٠٧م. مع المشككين في نهج البلاغة. قم: مكتبة العزيزى.
الأمين، أحمد. ١٩٦٩م. فجر الإسلام. الطبعة العاشرة. بيروت: دار الكتاب العربى.
باشا، عمر موسى. ١٩٩٣م. نهج البلاغة في مرآة القرآن. ضمن كتاب نهج البلاغة والفكر الإنسانى المعاصر. سوريا: المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق.
بروكلمان، كارل. لاتا. تاريخ الأدب العربى. نقله إلى العربىة عبد الحليم النجار. الطبعة الثانية. ج ٢. قم: أفست دار الكتاب الإسلامى.

بلع، عبد الحكيم. ١٩٥٤م. النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه. القاهرة: الأنجلو المصرىة.
التسترى، محمد تقى. ١٤١٨ق. نهج الصباغة في شرح نهج البلاغة. ج ٥. الطبعة الأولى. طهران: دار أمير كبير للنشر.

الجاحظ. لاتا. البيان والتبيين. تحقيق على أبو ملجم. الطبعة الأولى. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
جعفرى، سيد محمد مهدى. ١٣٥٦ش. پژوهشى دراسناد ومدارك نهج البلاغة. طهران: انتشارات قلم.

جمعة العاملي، حسين. ١٤٠٣ق. شروح نهج البلاغة. الطبعة الأولى. بيروت: مطبعة الفكر.
الجلالي الحسيني، محمد حسين. ٢٠٠١م. دراسة حول نهج البلاغة. ط ١. بيروت: شركة الأعلمی
للمطبوعات.

الحسيني الخطيب، السيد عبدالزهراء. ١٤٠٥ق. مصادر نهج البلاغة وأسانيده. بيروت: دار الأضواء.
الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحمى ابن العماد. لاتا. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ج ٣. بيروت: دار
إحياء التراث العربي.

الحوفي، محمد أحمد. ١٩٧٧م. بلاغة الإمام علي. مصر: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان. لاتا. ميزان الاعتدال في نقد الرجال. تحقيق
على محمد البجاوي. بيروت: دار الفكر.

الرماني، أبو الحسن. لاتا. النكت في إعجاز القرآن. ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني
والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني. حققها وعلّق عليها محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام. الطبعة
الثالثة. مصر: دار المعارف.

الزركلي، خير الدين. ١٩٨٩م. الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين
والمستشرقين. ج ٣. الطبعة الثامنة. بيروت: دار العلم للملايين.

زكي صفوت، أحمد. ١٩٣٢م. ترجمة علي بن أبي طالب. لامك: مطبعة العلوم.
زيدان، جرجي. ١٩١٤م. تاريخ آداب اللغة العربية. راجعه وعلّق عليه شوقي ضيف. ج ٢. القاهرة:
دار الهلال.

الشامي، حسين بركة. ٢٠٠٨م. البرنامج الأمثل لإدارة الدولة وقيادة المجتمع في عهد الإمام "ع" لمالك
الأشتر. الطبعة الثانية. بغداد: دار الإسلام.
الشايب، أحمد. ١٩٤٥م. الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية. مصر: مكتبة النهضة
المصرية.

الشريفي، عبدالهادي. ٢٠٠٥م. نهج البلاغة، جمعه، مصادره، مناقشة التشكيك في نسبته إلى إمام علي.
فصلية المنهاج. ع ٣٦.

الشهرستاني، هبة الله. ١٣٥٢ق. ما هو نهج البلاغة. صيدا: مطبعة العرفان.
الصفدي، صلاح الدين خليل بن ابيك. ١٤٠١ق. الوافي بالوفيات. ج ٢١. لامك: دار النشر
فرانزشتاينر.

ضيف، شوقي. لاتا. الفن ومذاهبه في النثر العربي. الطبعة الثامنة. القاهرة: دار المعارف.
طعمة، هادي سلمان. ١٩٧٧م. تأثير نهج البلاغة في الأدب العربي. مجلة العرفان. ع ٦٥٧.

عباس، إحسان. ١٩٥٩م. الشريف الرضي، دراسة. بيروت: دار صادر.
عبده، محمد. لاتا. شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: مطبعة الاستقامة.

العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي ابن حجر. لاتا. لسان الميزان. ج ٤. الطبعة الأولى. بيروت: دارالفكر.

الغفاري. عبدالرسول. ١٤٢٨ق. دعوات وشبهات أثارها البعض حول نهج البلاغة. مجلة تراثنا. ع ٣-٤.

فضل، صلاح. ١٩٩٨م. علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته. الطبعة الأولى. القاهرة: دار الشروق. كاشف الغطاء، الهادي. ١٩٥٤م. مستدرک نهج البلاغة، ومدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه - كتابان في مجموع واحد. تأليف وجمع الهادي كاشف الغطاء. بيروت: مطبعة مكتبة الأندلس للطباعة والنشر.

مبارك، أحمد زكي. لاتا. النثر الفني في القرن الرابع. جزء أن. الطبعة الثانية. مصر: مطبعة السعادة. المبرد، محمد بن يزيد. لاتا. الكامل في اللغة والأدب. بيروت: مكتبة المعارف. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. لاتا. مروج الذهب ومعادن الجواهر. بيروت: دار الأندلس. الهاشمي، أحمد. ١٣٧٩ش. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. قم: نشر إهام. اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد. ١٣٣٩ق. مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. الطبعة الأولى. حيدرآباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة.